

قراءة الجابري التجديدية للفكر والنص الديني

طرشي الزهرة

قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة معسكر

إن الحديث عن إسهامات الدكتور محمد عابد الجابري في مجال الدراسات الفلسفية يقودنا وبالضرورة لا محالة إلى الحديث عن جملة مؤلفاته والتي أثرت الفكر الفلسفي. بداية من عمله كمعلم ابتدائي، ثم كأستاذ للفلسفة بكلية الآداب بالرباط؛ حيث تمخض عن هذه المراحل عدة مؤلفات تعددت بتعدد ميادين اهتمامه ودراساته من فلسفة المعرفة، والابستمولوجيا والتاريخ. وقد انتقينا أحد أهم مؤلفاته باعتباره يحوي هذه المباحث الفلسفية؛ والمقصود بالذكر مؤلفه: مدخل إلى القرآن الكريم الجزء الأول، والذي يحوي ثلاثة أقسام وهي كالتالي: الأول بعنوان قراءات في محيط القرآن الكريم. أما القسم الثاني فبعنوان القرآن مسار الكون والتكوين. والقسم الثالث بعنوان القصص في القرآن الكريم. وقد تم اختيار هذا المؤلف للتحليل والتقييم لسببين الأول يتمثل فيما نجده من ميل إلى البحث في الفكر العربي المعاصر، وبالخصوص ما يتعلق بتأويلات النصوص الدينية، ومعرفة مدى حجم الاستقلال الفلسفي فيما يخص الفكر العربي. أما السبب الثاني فيعود إلى ما يثار حول فكرة التأويل للنص القرآني من نقاش وجدل بين من يحسبه مجرد استهلاك وتقليد للغرب، وبين من يرى أنه باب من أبواب ولوج العقلانية وتأسيس لبداية فكرية فلسفية فيما يخص الفكر العربي. وانطلاقاً من هذا فإن الإشكال الذي يتبادر إلى أذهاننا هو ما طبيعة القراءة التأويلية التي يقترحها محمد عابد الجابري؟ وكيف تتحدد معالم هذه القراءة التأويلية؟. ومعنى آخر هل بإمكان هذه القراءة التأسيس لبداية فكرية فلسفية حقيقية فيما يخص الفكر العربي أم هي مجرد استهلاك وتقليد؟ وهل سيكتفي بتوضيح قواعد

ومبادئ قراءته التاريخية المقترحة لفهم النص القرآني بكامله، أو على الأقل لنماذج منه؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات يمكن أن نجد بعضها في كتابه مدخل إلى القرآن الكريم، كما يمكننا الاستعانة بمؤلفه "نحن والتراث" والذي أشار إليه الجابري في مقدمة كتابه باعتباره أحد المفاتيح الضرورية؛ لأن الدكتور محمد عابد الجابري قد بين فيه مبادئ قراءته الجديدة للتراث. ولقد كان وراء كتابة الجابري لكتابه مدخل إلى القرآن الكريم عدة أسباب قد صرح بها في مقدمة هذا الجزء الأول من بينها: أحداث 11 سبتمبر 2001، والتي تلتها عدة تغيرات شملت العديد من المستويات كالسياسة، والاقتصاد وغيرها. أما فيما يخص المفاهيم المفتاحية بالنسبة للموضوع فمن بينها: التأويل

Herméneutique المشتق من الكلمة اليونانية Herméneutike

والتي تعني رسول الآلهة إلى البشر⁽¹⁾. وهو بهذا المعنى وسيط يفسر ويشرح المرمز ويفك المبهم، وقد كان التأويل في القدم يقتصر على تأويل النصوص الدينية ليتسع ويشمل فيما بعد العقل الإنساني أما لغويًا: "فالتأويل من الأول وتعني الرجوع وأول الكلام دبره، وقدره"⁽²⁾. أما فلسفيًا: "فالتأويل في نظر هايدغر ليس سوى جزء من الفهم للذات وللوجود، ولا يتم إلا إذا وضع المؤول نفسه في الإطار الدلالي أي وضع حدود للتأويل"⁽³⁾. أما المفهوم الآخر هو العقل "Raison المشتق من الكلمة اليونانية Ratio والتي تعني الملكة فقط"⁽⁴⁾. أما لغة: "فهو الحجر والنهي ضد الحمق ويقال عقلت البعير إذ جمعت قوائمه والعافل الذي يجبس نفسه ويردها عن هواها"⁽⁵⁾. أما فلسفيًا: "فهو ملكة الفهم وملكة إدراك العلاقات الذهنية"⁽⁶⁾. ولتحديد طبيعة العلاقة بين كتابي الجابري "مدخل إلى القرآن الكريم" و"نحن والتراث" كان لزاماً الوقوف على خلاصات هذا الأخير الذي يعد بمثابة المدخل إلى القرآن الكريم.

1. نحن والتراث: صدر هذا المؤلف عام 1980 ويحتل مكانة مميزة بين كتب الجابري وذلك لاعتبارات منها: أنه بمثابة مدخل لمشروع الجابري النقدي كما أنه يوضح قواعد وأسس قراءة الجابري للتراث العربي الإسلامي، وذلك بداية بانتقاده للقراءات السلفية والتي تفتقد من الناحية المنهجية للموضوعية، ومن ناحية الرؤية تعاني كلها من غياب النظرة التاريخية، ومن الناحية الإبيستمولوجية فهي جميعها مؤسسة على طريقة واحدة في التفكير تقوم على ما سماه العرب القدامى قياس الغائب على الشاهد"⁽⁷⁾. وقد أعطى الجابري بديلاً يتجاوز سلبيات هذه القراءات السلفية، وذلك بناء على رؤيا جديدة، وقراءة جديدة، ومنهج؛ بحيث تجعل الخطاب التراثي منسجماً مع محيطه ومعاصراً لنفسه على المستوى المعرفي، والإشكالي والمضمون الأيديولوجي، ومعاصراً لنا على مستوى الفهم والمعقولة؛ مما يزيل الضبابية التي تسعى القراءات الأخرى لتكريسها. كما تشل حركة الفكر الناقد بها، وتعيق أي دعوة فكرية تسعى للتغيير، ويتم تحقيق هذا المطلب الفكري بناء على مدى فاعلية القارئ للنص التراثي. كما أن القراءة التي يقترحها الجابري تقوم على خطوتين أساسيتين وهما: "جعل المقروء معاصراً

لنفسه ومعناه فصله عنا، وجعله معاصرا لنا ومعناه وصله بنا...قراءتنا تعتمد إذن الفصل والوصل كخطوتين منهجيتين رئيسيتين⁽⁸⁾. وبهذا فإن القراءة التي اقترحها الجابري قراءة تاريخية تسعى إلى إحداث قطيعة مع الفهم التراثي للتراث، وذلك بتحريه فهم التراث من الإيديولوجيات التي جعلت فهمنا غير واضح، ويتسم بالضبابية فهي تحجب الرؤية. ولتوضيح الرؤية علينا القيام بزحزة هذه الأغشية والسلط التي تم تغليف التراث بها، لينتقل بعدها إلى اللحظة الثانية وهي وصل القارئ بالمقروء؛ بحيث عن طريق الحدس الرياضي يتم جعل الذات القارئة تحاith المقروء، وتلامس إشكالاته. ومقصود الجابري بالحدس ليس الحدس الصوفي أو الفينومولوجي أو غيرها من الحدوس الأخرى؛ وإنما المقصود هو حدس قريب من الحدس الرياضي. أما فيما يخص القراءة الجابرية المتعلقة بالخطاب القرآني فترتسم ملامحها بوضوح من خلال المنهجية التي قدمها الجابري في كتابيه: التراث والحداثة، ومدخل إلى القرآن الكريم الجزء الأول.

2. التراث والحداثة: قدم الجابري في هذا الكتاب مثالا تطبيقيا يوضح منهجيته المتبعة وذلك تبعا لقوله تعالى: "لذكر مثل حظ الأنثيين" سورة النساء الآية 176. ولتأويل هذه الآية طبق الجابري خطوات منهجه التي اقترحها من خلال كتابه نحن والتراث ويقول في هذا الصدد: "لكي نجعله معاصرا علينا أن نقرأه في محيطه الاجتماعي الخاص، أعني المجتمع الذي نزل فيه الإسلام، كان ذا بنية قبلية، والملكية كانت مشاعة فالأصل القبيلة تملك وليس الفرد، وعلاقة القبائل صراعية، والملاحظة الثانية تحريم الزواج بالأقارب (المحارم) وتفضيل الأبعاد"⁽⁹⁾. ومن خلال هذه الملاحظات يتضح جليا بأن الزواج كان وسيلة للتخالف مع قبيلة أخرى وفي هذه الحالة ما ترثه المرأة سيؤول إلى أهل زوجها سواء كان مال أو مرعى، وهذا ما أدى إلى وجود نزاعات؛ ولهذا السبب كان المجتمع القبلي لا يورث البنت نفس نصيب الذكر والبعض الآخر يجرمها من الميراث بالإضافة إلى تعدد الزوجات وهذا الأمر يخل بالنظام الاقتصادي، وتفاديا لهذا أقر الإسلام بالحل الوسط بين المرحلتين المتمثلتين في المرحلة الجاهلية، ومرحلة الدولة الإسلامية ليعطيها نصف ما للذكر، بالإضافة إلى إلزام زوجها بنفقتها وبناء على هذا التحليل يتضح أن الحكم الشرعي الإسلامي يستجيب لمتطلبات المجتمع المدني. ويضيف الجابري قائلا: "نتيجة لطبيعة جبال الأطلس بالمغرب حيث الأرض مشاعة بين القبائل وسبب النزاعات التورث لبنت أفتى بعض الفقهاء بعدم تورثها، وهي مخالفة لمنطوق الحكم الشرعي، ولكن فيها مصلحة هي هنا درء للفتنة"⁽¹⁰⁾. من الواضح أن الجابري قام بدراسة تعتمد على الفهم العميق والواعي للدلالات محيطة النص القرآني والظروف المحيطة به. وهذا ما يؤكد بأن العقل العربي قد تشكل وفقا للواقع المفروض عليه ليمر بعدة مراحل تمثل بناءات معرفية، والتأويل هو إحدى هذه البناءات، ومن خلاله يتم الانفتاح لتوظيف معطيات التراث في معارك الحاضر الفكرية على وجه الخصوص. وبهذا للجابري يؤكد على ضرورة قراءة القرآن من جديد بناء على قراءة نقدية منفتحة وبعيدة كل البعد عن القراءات المؤدجة، وهذه الخطوة لا بد منها من أجل تحقيق فهم جوهرى للقرآن باعتباره نصا تأسيسيا. وقد اعتمد على مجموعة من المفاهيم في قراءته للنص الديني (القرآن) والتي اعتبرها بمثابة آليات لفتح الآفاق التأويلية، وتجاوز الفهم الدوغمائي للتراث، وفتح المجال لإنعاش قراءة النص الديني. بالإضافة إلى التعاطي الواعي مع التاريخ ومن بين هذه المفاهيم الوصل والفصل... الخ وهي آليات أساسية في الدراسة التأويلية لدى الجابري. ومن خلال ما سبق يتضح أن الجابري يعتمد على منهج التحليل البنوي بناء على مبدأ القراءة في المحيط الاجتماعي الخاص بنزول القرآن الكريم قصد جعله معاصرا لنفسه، والمحيط الاجتماعي المقصود به هو المجتمع القبلي وتوازنته حيث العلاقة هي علاقة نزاعات حول المراعي، ويضيف الجابري فيما بين سطور تحليله بأن المصلحة العامة هي الأساس الذي يجب الاحتكام إليه فيما يخص إتباع النص أو تجاوزه وانطلاقا من هذا يبدو جليا لنا حسب الجابري أن فهم النص وفقا للطريقة التي قدمها، حيث يصبح معاصرا لنا في إطار الفهم، أما على مستوى إطار الفعل فهذا يقتضي المزيد من البحث في عدة زوايا متعددة. وبهذا نستنتج بأن الجابري يسعى إلى بعث روح النص من جديد والمقصود هو الروح الانفتاحية التي تقبل الأخذ والعطاء مع عصرها مما يفتح الباب أمام مشروعية الاجتهاد وفق اللحظة التاريخية المتجددة. ولذا سيكون جعل النص معاصرا لنفسه أمرا علميا وعلى مستوى الأفهام، أما جعل النص معاصرا لنا على مستوى الفعل فهو ما دعى الجابري إلى التوقف. وفي هذا الصدد يقول عبد الهادي: "ولعل توقف محمد عابد الجابري في قوله إن مدى استجابة النص لمعطيات المجتمع الراهن هو أمر ليس من اختصاصي هو إدراكه للفرق، وإن كان قد أشار إلى أن الاجتهاد ممكن لمن يريد الاجتهاد، أما حدودي كعالم فيجب أن تتوقف هنا"⁽¹¹⁾.

3. مدخل إلى القرآن الكريم الجزء الثالث: كما ذكرنا سابقا هو مقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول من الكتاب بعنوان قراءات في محيط القرآن الكريم، وقد استهله بالحديث عن أصل الديانات السماوية الثلاثة وتطرق فيها إلى قضية النبي الأمي، وإلى إدعاءات النصارى،

وعلاقات الدعوة المحمدية، ويركز فيما بعد على حدث النبوة، والوحي، وينتقل إلى دراسة حقيقة النبوة وآراء التيارات الفكرية حولها؛ وقد تم طرح هذه الأفكار ارتباطاً مع السيرة النبوية التي أصبحت مهمشة في حقول الدراسات الفلسفية بناء على عدة معطيات: من بينها التراجع الملموس على المستوى الحضاري الإسلامي في مختلف الميادين. أما القسم الثاني من الكتاب فقد تم تخصيصه لما سماه الجابري القرآن مسار الكون والتكوين، وتناول فيه تتبع المسار التكويني للقرآن الكريم اعتماداً على القرآن في حد ذاته بداية من النزول إلى غاية جمعه في المصحف، كما اعتمد على أسباب النزول في عملية ترتيب نزوله وهذا ما أعطى لدراسته الفلسفية الروح التاريخية؛ والتي جعلت من دراسة الجابري للمسار التكويني للقرآن معاصراً لنفسه ولنا في نفس الوقت. أما القسم الثالث فكان بعنوان القصص في القرآن الكريم، وتم الاستشهاد بـقصص وسير الأقبام والرسول من أجل أخذ العبر؛ لأن من لم يفهم ماضيه غير قادر على تغيير لا واقعه ولا المضي إلى مستقبله الفكري؛ فهو في قراءته للموضوع المطروق من قبل القدامى تحت عنوان "علوم القرآن" استطاع الإفلات من شرنتهم الفكرية ليقدّم لنا وجهة نظره والتي تلخص في ميزة قراءة الجابري للنص القرآني، التي أتاحت الطريق لظهور قواعد منهجية تسعى إلى بناء قراءة جابرية تحوّر فهمها واضحا للخطاب القرآني. كما أن قراءة الجابري تسعى إلى تحطيم كل ما يحجب عن الفهم الواضح خصوصاً ما تعلق بمحدث الوحي المحمدي، والذي نجدّه مرتبط بتأويلات إيديولوجية مشبعة بالروح الفلسفية، والسياسية، والتي كان لها إسهام كبير في حجب العقل القرآني إلى حد تعييبه، وهذا ما يوحي لنا أن الإسلام في نظر الجابري هو دين عقل. ومن بين جملة الأدوات التي اعتمد عليها في دراسته: "نسقية التركيب، والأسلوبية المعجمية لنظام اللغة، وسياقية تتعلق بفهم عميق وواع بالظروف المحيطة بدلالات النص والمسمّاة بـ"فقه الواقع"، وأفقه المرحلة وهذا ما سماه (بنية العقل)؛ إذ تشكل العقل العربي تبعاً لما أُملي عليه الواقع، أو المرحلة والقصد أن يأخذ من النص فكانت المرحلة البيانية (التفسيرية)، ثم العرفانية (التأويلية)، ثم البرهانية (المنطقية)، كما أن استنباط الأحكام من النص يخضع بالأساس إلى ثقافة المستنبط ودرايته بأحوال التنزيل"⁽¹²⁾. وبالإضافة إلى ماسبق ذكره من أدوات منهجية يركز على خطوتين أساسيتين: الوصل والفصل، وقد طبقهما بالأخص على القرآن باعتباره كتاب سماوي، وأيضاً بالنظر للعلاقة التي تربطه بباقي الكتب الأخرى (الإنجيل والتوراة)، والتي اتضحت بعدما تراكم القرآن. كما أن الجابري يصرح بأن تعريفه للقرآن كان بدافع تحريره مما تم حشوه ضمن الخطابات التي تسعى إلى فهم النص القرآني كوجهات نظر المتصوفة، والفلسفة الإستشراقية، وحتى الغنوصية... الخ. وانطلاقاً من هنا اعتمد الجابري مبدأ أو قاعدة القرآن يفسر بعضه بعضاً من أجل التخلص أو الانفلات من سلطة وقداصة التأويلات التي يقدمها رجل الدين، أو أي هيئة تمثله، وأيضاً للتحرر من ثقل الموروث الثقافي الذي تحشى به النصوص كـالإسرائيليات وغيرها. إذن دراسته "فيها بعض الآيات الجديدة التي يقدمها لفهم النص القرآني، وذلك وفقاً لما تقدمه الفلسفة من مناهج معاصرة يتجاهلها علماء الدين في تعاملهم مع القرآن وتظهر عند الفلاسفة المعاصرين الباحثين في النص القرآني كـالجابري"⁽¹³⁾. وبهذا تكون الفلسفة ممارسة متميزة عن الدين؛ وحتى في تعاملها مع القرآن كونه أوسع وأشمل في طرح قضاياها بالإضافة إلى نظرتها العقلانية والعميقة فيما يخص النصوص، وهذا ما يوضحه الجابري من خلال قوله "التأويل الذي هو من الناحية الإبيستيمولوجية عملية واحدة، استثمار للألفاظ. وبهذا فالتأويل البياني يستخرج الكنز كله من اللفظ والتأويل العرفاني يأتي بالمعاني جاهزة ويضمّنها في اللفظ"⁽¹⁴⁾. وبهذا يكون الجابري قد انتصر للتأويل البياني الكلامي على حساب التأويل العرفاني؛ واختياره لأفضلية أحدهما على الآخر راجعة إلى وظيفة كل منهما وإلى الدور الذي يلعبه كل منهما في خضم العملية التأويلية. أما الخطوة الثانية والتي ركز عليها الجابري والتي تسعى إلى تقديم قراءة للتراث، وفي نفس الوقت تفسح المجال لعملية الانفتاح هي التحديد من الداخل، وانطلاقاً من هذا المفهوم وسياقه المعرفي يرفض الحدأة المفروضة من الخارج ويقترح بديلاً هو الحدأة المستوحاة من الداخل أي التحديد الداخلي، ولهذا يقترح العودة للتراث والبحث في خضمه من أجل العثور على آليات، ومفاهيم موجودة داخل هذا التراث تحوي بذور التحديد وفي مختلف المواضيع، ويحدث هذا بعد إخضاع التراث للنقد والتشريح، ليتم الإفصاح عن اللامنطوق والمجرب. وبهذا يفتح المجال أمام إمكانية إعادة قراءة التراث قراءة جديدة تخضع للموضوعية والتاريخية والعقلانية وتستحث فيه روح العصر، والماضي في نفس الوقت ليحدث بذلك تراوج في يعبر عن حقائق إبداعية راقية تعبر عن ذاتنا العربية. أما فيما يخص عنصر الاتصال والانفصال؛ فاتصالنا بـتراثنا الماضي يكون على مستوى الهوية فنحن بالضرورة بحاجة لهويتنا المرتبطة بتاريخنا الماضي، والانفصال عن التراث على صعيد الشمولية والعالمية وفي هذا الصدد يقول كمال عبد اللطيف: "المسافة في نصوص الجابري بين البحث والتأويل مسافة إشكالية لأنها أولاً عملية ثنائية تركيب داخل التركيب البحثي ومرمى البحث بالضبط هو التفكير في كيفية توطين الحدأة حيث لم يعد بإمكان المشتقات التراثية في ضميتها، وتكلسها، ونصيتها

أن تواجهه متطلبات الأزمة هنا ينتقل الباحث من مستوى التحليل إلى مستوى التأويل؛ حيث يفكر في كيفية امتلاك مقدمات الحدائث من داخل عملية إعادة تملك التراث يفكر في الانفصال والاتصال⁽¹⁵⁾. من خلال ما سبق يتضح أن الجابري يسعى إلى توظيف معطيات التراث لحل مشاكل الحاضر وتحدياته؛ وبالتالي الأطروحة الجابرية مخصصة للمجال السياسي، والتاريخي، ومرتبطة أيضا بالجانب المعرفي و الأيديولوجي وهذه الفكرة تتعلق بعملية التحديد من داخل التراث، وهي عبارة عن إستراتيجية تسعى إلى تقديم قراءة لمورو ثنا الثقافي وبهذا فالجابري ليس من دعاة القطيعة مع التراث؛ وإنما يسعى إلى إعادة نسج نوع من التواصل بيننا وبينه، وكخطوة أولية علينا إعادة تنظيم أنفسنا وحتى علاقاتنا بصورة حدائية لتضمن لنا وجود حيوي إبداعي في الفضاء الفكري، وكذلك إن تراثنا بحاجة إلى أن نحتويه لنكتشف ما هو بحاجة إلى الترميم، وما هو بحاجة إلى النقد والتجاوز. أما فيما يخص الظاهرة القرآنية بالأخص فقد وضع الجابري إستراتيجية مطبقة في دراسته للنص القرآني وبنائها على مبدئين أساسيين: الأول جعل هذا النص القرآني معاصرا لنا. أما المبدأ الثاني فيتمثل في السعي إلى تحرير النص القرآني من ما قد رسمه له الموروث، والمؤسسات الدينية، وحتى تراث ما قبل الإسلام. وقد وجد الجابري ضالته باعتماده على القاعدة التي تقول: القرآن يفسر بعضه بعضا ويعتبرها المدخل لجعل القرآن معاصرا لنا ومعاصرا لنفسه. ويقول في هذا الجانب "إن الذين اختصوا في هذا النوع التكويني مع النص القرآني هم علماء باحثون ظهوروا في مرحلة متأخرة نسبيا أطلقوا على نتائج أبحاثهم أسماء... اسم جامع هو علوم القرآن، يقصدون بذلك أنواع المعارف التي تدور حول مختلف جوانب النص القرآني"⁽¹⁶⁾. إلا أن الجابري لم يصرح من هم العلماء المقصودين؛ لأن من بين هؤلاء العلماء فقيه اعتبر من طرف السلفيين مرجعا لهم، وهو ابن تيمية؛ وقد استعمل ابن تيمية قاعدة القرآن يفسر بعضه بعضا واعتبرها من أحسن طرق التفسير. أما الجابري فقد استخدم هذه القاعدة بغرض إبعاد التفسيرات القرآنية التي تم فيها استخدام الموروث القديم كالأسرائيليات، والعرفان، وحتى الغنوصية، وغيرها من الدراسات التي وظفت القرآن لأهداف أيديولوجية، وسياسية، أو طائفية. ويركز الجابري على الطائفية باعتبارها ردود أفعال يغيب فيها العقل وتحل مكانه العاطفة؛ مما يؤدي إلى إختلالات خطيرة على مستوى الفكر العربي الإسلامي، ولهذا سعى الجابري إلى التعريف بالقرآن من خلال قراءته تاريخية توضح أن هذا الدين مؤسس على مفاهيم عقلانية. يقول إبراهيم أعراب: "والمفارقة أن هذه العقلانية لا يمكن تأسيسها وتحققها لدى الجابري إلا بالاعتماد على مفاهيم السلفيين الأكثر معاداة للعقلانية والعقلانيين وهو أحمد بن تيمية، مما يعني أن الجابري... وجد ضالته لدى ابن تيمية ومفكري الإسلام السلفي"⁽¹⁷⁾. ومن الواضح أن الجابري قد استخدم قاعدة "تفسير القرآن بالقرآن" كأداة القصد منها التحديد من الداخل، كما أنه يحاول استلهام المنهج الرشدي العقلاني الذي يؤكد على أنه ليس هناك تعارض بين المنقول والمعقول، وفي هذا الصدد يقول أبو الوليد بن رشد في كتابه فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال: "والنظر في الحكمة يكون لمن هو أهل لها، والفصل بينهما كمن يجمع العطشان من شرب الماء البارد العذب وتركه يموت لأن قوما شرقوا به فماتوا"⁽¹⁸⁾. وبهذا يحاول الجابري العودة إلى الأصل الأول والذي هو القرآن بالنسبة إلى الإسلام. مما سيسمح للقرآن الكريم بالتعبير عن نفسه انطلاقا من قاعدة "القرآن يفسر بعضه بعضا". ويمكن أن نستنتج مما سبق أن الجابري سعى لتطبيق هذه القاعدة "تفسير القرآن بالقرآن" من أجل تسهيل عملية التعامل مع القرآن مباشرة بعيدا عن الوسائط، والسلط، ولكن يجب الإشارة إلى أن هذه العملية ليست بالأمر الهين؛ فهناك مفاهيم، وقواعد أصولية، وأسباب نزول، وناسخ ومنسوخ قد ترسخت في مباحث علوم القرآن. فما السبيل الذي اتخذ الجابري للانفلات من هذه المفاهيم التراثية؟ من الواضح في كتاب الجابري مدخل القرآن الكريم الجزء الأول، أنه لم يتخلى عن استعمال مفاهيم تراثية، وحتى تفاسير تعتمد على المأثور خلال قراءته؛ لكن هذا لا ينفي ما بذله الجابري لتحقيق هذا المطلب؛ بحيث وضع جملة من المنطلقات تساهم في تحقيق قراءته التاريخية، والعقلانية للقرآن الكريم وهذه المنطلقات هي: 1. تفسير القرآن بالقرآن... 2. التعامل معه بحسب ترتيب النزول... 3. إقامة تطابق بين نزول القرآن والسيرة النبوية... 4. عدم فصل الدعوة المحمدية عن السياسة والتاريخ... 5. عدم الفصل في القرآن بين الدين والدنيا... 6. اعتبار حياة الرسول وتعاليم القرآن موضوع مفتوح لإعمال العقل... 7. اعتبار القرآن وحده هو المعجزة ونفي الفوارق"⁽¹⁹⁾. ومن خلال هذا يتضح أن الجابري يسعى إلى جعل القرآن معاصر لنفسه بناء على هذه الخطوات وبالأخص إقامة تطابق بين القرآن والسيرة وبتابع ترتيب النزول. وبالتالي فإن قراءة الجابري كانت تهدف لإيضاح العديد من النقاط بداية من التأكيد على أن الدعوة المحمدية تقوم على العقلانية، وتفتح المجال لإعمال العقل وحتى علاقة النبي بالقرآن كانت في حدود المعقول. وفيما يخص القصص القرآني فهو وسيلة إقناع تحتكم إلى العقل، كما يؤكد الجابري على أن القرآن ليس بحاجة إلى معجزات تؤيد صدقه، ويشيد الجابري بابن رشد، وبمنهجه في التفكير، ويبرز أهميته فيما يخص قراءته

العقلانية للقرآن، وهذا يؤكد بأن هناك اتفاق بين الجابري وابن رشد في قراءة العقلانية مع الاختلاف في بعض الضوابط العامة. وبإمكاننا اعتبار الدراسة الجابرية استكمال للقراءة الرشدية؛ بحيث يمكن أن توصف بأنها استعادة للعقلانية الرشدية، ويؤكد الجابري على أن مشروع بن رشد يقوم على فكرة أساسية ويوضحها بقوله: "لقد درس بن رشد فلسفة أرسطو وهي خالية تماما من هاجس التوفيق بين الدين والفلسفة، كما درس العلوم العربية.... ليجد أنه لاعلاقة إطلاقا بين الفلسفة (أرسطو) والدين (الإسلام)، لأن الأمر يتعلق في نظره بنائين مستقلين لكل منهما أصوله ومبادئه، وأن امتحان صدق أية قضية في أي منهما يجب أن يكون داخله، وليس خارجه"⁽²⁰⁾. من الواضح أن بن رشد والجابري يتوافقان في نقطة محورية لمشروعيهما وهي العقلانية، ويبقى الاختلاف على المستوى التاريخي؛ فالجابري حاول استعادة العقلانية الرشدية ويوظفها في مشروعه الفلسفي، كما أن النزعة الرشدية لدى الجابري تتجلى بوضوح فيما يتعلق بمسار الجابري الفكري وخصوصا من خلال أعماله التي سعى فيها إلى التحقيق فيما يخص نصوص ابن رشد لتكون بهذا العقلانية الرشدية بمثابة الأرضية المساعدة للتأصيل فيما يتعلق بمشروع الجابري الفكري والمرتبطة بالتراث وبالأخص الظاهرة القرآنية. وإجمالاً فإن هناك بعض القراء لكتابه مدخل إلى القرآن الكريم الجزء الأول يرون بأن الجابري لم يبق وفيها لمنهجية كتابه "نحن والتراث"؛ لأنه قد صرح في كتابه هذا أنه يسعى إلى تطبيق الوصل والفصل كخطوتين أساسيتين في منهجه غير أنه اكتفى بمداهنة البنى الفكرية التقليدية عوض ممارسة النقد البناء ليبقى حبيس اللحظة الأولى دون أن يخطوا أي خطوة نحو الفصل الذي يمثل الخطوة الثانية ويؤكد ذلك. ومن الملاحظ أيضا أن القراءة الجابرية قد استبعدت جملة من الإنجازات الفكرية كالصوفية والإشراق رغم أن التأويل يقضي بالتححرر من النظرة الضيقة خصوصا وأن الجابري يؤسس لمشروع فكري فلسفي، كما أن طه عبد الرحمن "يرى بأن الآليات المنقولة التي توسل بها الجابري لا تشكل نسقا متماسكا، وهذه الآليات: البنيوية، والتكوينية، والعقلانية والجدلية، وهي في نظره غير مناسبة من جهة، وأيضا أساء استعمالها، من جهة أخرى"⁽²¹⁾. والمقصود من هذا أن هذه الآليات تبني على مبادئ ثلاثة تعارض المبادئ التراثية؛ وهذه المبادئ المعارضة هي مبدأ الموضوعية، ومبدأ العلمانية، ومبدأ النظر المتوحد. كما يؤكد طه عبد الرحمن أن الجابري لم يباشر قط نقد هذه المبادئ المنقولة. وهناك أيضا ردود أفعال إيجابية إزاء كتاب الجابري مدخل إلى القرآن الكريم من بينها ما تقدم به محمد الشيخ في قوله "القرآن كتاب تاريخي، ولذلك لا بد للتعامل معه، كما يقول الجابري من فكر تاريخي متتبع لتطور الثقافة العربية، لا سيما منها الجانب الكلامي والفقه... وهذا فإن الطريق إلى معرفة القرآن هي التعامل معه على أساس ترتيب النزول لسوره من أول آية نزلت إلى آخر آية، وذلك عكس ما درج عليه المفسرون من التفسير بحسب ترتيب المصحف"⁽²²⁾. ومن خلال هذا يتضح أن القراءة التي يقترحها الجابري ضرورية لكي يكون هناك تطابق بين نزول القرآن والسيرة النبوية مما سوف يحدث تناسق بين نزول القرآن وحياة الرسول، وبهذا فهو يحاول كسر المسلمات الإيمانية بالاعتماد على التشكيك بغية فتح المجال أمام الحريات الفكرية ليتم بذلك دعم فضاء العقلانية.

كما يؤكد جملة من الباحثين أن الموضع النقدي هو الأداة البارزة في أعمال الجابري؛ بحيث يرون أن الجابري "في القارة التراثية لا يندرج ضمن البحث التراثي التقليدي، إنه يشتغل في الجبهة التراثية ليعلمنا أولا أن المجال التراثي ذاكرة جماعية، ولا يحق لأحد التفرد باحتكارها"⁽²³⁾. وبهذا يكون عمل الجابري النقدي بمثابة المكسب للمفكر المعاصر، كما أنه يمثل نقطة استلهام للعناصر المتضمنة ضمن المكون التراثي الذاتي. وإجمالاً يمكن رصد بعض الاستنتاجات اللافتة للاهتمام من بينها: أن دعوة الجابري إلى إعادة قراءة القرآن الكريم من خلال كتابه مدخل إلى القرآن الكريم لا تعني الانغلاق على بقية الدراسات بل فتح المجال أمام تعدد القراءات لإثراء الرصيد التراثي وذلك من خلال عودة العقل ليسير حياتنا من جديد ولمواجهة مشكلات الواقع التي يعانها المجتمع العربي الإسلامي اليوم، ولكي يعود هذا العقل يجب أن يتوفر للعقل الإسلامي مناخ حقيقي من الحرية، وأن نعي بأن القرآن الكريم يحوي معاني مطلقة وأفهام نسبية، ولكل عصر فهمه الخاص بناء على أرضيته المعرفية الخاصة، كما أن الجابري يدعوا إلى قراءة حدائثية للنص القرآني تستغل أهم التحولات الجديدة على مستوى مناهج القراءة، وبمقتضى هذه المرجعية التي اكتسبها النص في فضاء الثقافة العربية الإسلامية والتي تم وصفها بأنها ثقافة نص، وبالرجوع إلى الأصول الأولى التي جسدها يتضح بأن أحسن بديل هو في هذا النص المؤسس وهو القرآن. كما أنه يسعى من جهة أخرى إلى تحقيق إسهام فلسفي حقيقي يكون على شكل مقترحات وحلول للقضايا الإنسانية المطروحة في ضوء تطورات الحياة المعاصرة ومكتسبات المعرفة الإنسانية، والتحديات الجديدة في القرن العشرين كالديمقراطية، وحقوق الإنسان، والإسلاموفوبيا بناء على استثمار الفكر الفلسفي والعقلاني في قراءة القرآن الكريم.

وبهذا يتم الإعلان بأن النص القرآني نص حي لأن الفهم المتعلق به لم يكتمل بل يعيد نقد الأفهام السابقة عليه، ما يجعل منه منتجا لنص أو نصوص مركزية والاشتغال عليها اعتمادا على التأويل.

الهوامش:

1. Dawzat- Albert, Larousse et y magique et historique, édition française, 1971.p370
2. ابن منظور، لسان العرب المحيط، ج2، دار الصادر، لبنان، دس، ط1، ص187.
3. لالاند أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، ج2، دار الصادر، لبنان، دس، ط1، ص1102.
4. Larousse, Dictionnaire, Encyclopédique, édition française, 1981, p1021
5. ابن منظور، لسان العرب المحيط، ج2، دار الصادر، لبنان، دس، ط1، ص1159.
6. دريه جوليا، قاموس الفلسفة، تر: فرنسوا أيوب وآخرون، دار لاروس، باريس، ط1، 1992، ص1159.
7. إبراهيم أعراب، سؤال الإصلاح والهوية من السياق السلفي إلى مشروع الحداثة، أفريقيا الشرق، المغرب، دط، 2007، ص290.
8. الجابري محمد عابد، نحن والتراث (قراءة معاصرة في تراثنا العربي)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط6، 1993، ص12.
9. الجابري محمد عابد، التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط2، 1999، ص54.
10. الجابري محمد عابد، التراث والحداثة، ص55.
11. عبد الرحمن بد الهادي، سلطة النص قراءات في توظيف النص الديني، مؤسسة الانتشار العربي، مصر، ط1، 1998، ص231.
12. منقور عبد الجليل، النص والتأويل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2010، ص32.
13. نابي بوعلي وآخرون، حوار الفلسفة والعلم، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص161.
14. بلقرين عبد الإله، الإسلام والحداثة والاجتماع السياسي (حوارات فكرية)، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 2010، ص13.
15. عبد اللطيف كمال، الحداثة والتاريخ، أفريقيا الشرق، المغرب، دط، 1999، ص82.
16. الجابري محمد عابد، مدخل إلى القرآن الكريم، ج1، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 2006، ص20.
17. إبراهيم أعراب، سؤال الإصلاح والهوية من السياق السلفي إلى مشروع الحداثة، ص297.
18. ابن رشد، فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال، دار المشرق، بيروت، ط2، 1968، ص49.
19. إبراهيم أعراب، سؤال الإصلاح والهوية من السياق السلفي إلى مشروع الحداثة، ص299.
20. الجابري محمد عابد، مدخل إلى القرآن الكريم، ج، ص141.
21. علي زهرة أحمد، العقل العربي بنية وبناء (دراسة نقدية لمشروع الجابري)، نور للطباعة والنشر، مصر، ط1، 2007، ص80.
22. الشيخ محمد، محمد عابد الجابري مسارات مفكر عربي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 2011، ص32.
23. البرقاوي أحمد، التراث والنهضة (قراءة في أعمال محمد عابد الجابري)، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 2014، ص24.